الفصل الثاني

الفنون التحررية

ربما لأن الأفلاطونية أسهمت بقدر كبير في هدايته إلى المسيحية، لم يُبادر أوغسطينوس قط بوضع حدود واضحة وحاسمة بين الفلسفة وعلم اللاهوت؛ فهو لم ينظر إلى المنطق الفلسفي كوصيف للعقيدة أو كداعر خطير مهمته إغراء العقل بافتراض أن باستطاعته الوصول إلى غايته المطلقة دون مساعدة الرب ورعايته. عرَّفَ أوغسطينوس الموضوع الأساسي للفلسفة بأنه «دراسة الرب والروح البشرية» (مناجاة النفس). يلاحظ المرء استبعاد العالم المادي؛ فالدافع الذي أدى بالناس إلى التفلسف، كما وصف أوغسطينوس بأسلوب شيشرونيٍّ، هو ببساطةٍ البحث عن السعادة.

ينتشر علم الوجود الأفلاطوني، أو مذهب الوجود وطبيعة الأشياء الوارد وصفه في الفصل الأخير، في شتى كتاباته. هناك فقط بعض الجوانب التي عدَّلَ تفاصيلها؛ الأمر الذي يعطينا الانطباعَ بأنه بقدرِ ما قَبِلَ الحجج الأفلاطونية، قد حوَّلها دومًا إلى نتائج تُحددها عقيدته. وربما كان من الأصح أن نقول إنه لم يجد منطقًا كافيًا في الانفصال عن التقليد الأفلاطوني إلا إذا لم يكن متوائمًا مع مقتضيات العقيدة الكاثوليكية. بطبيعة الحال، فقد اعتبر أوغسطينوس الأفلاطونيين الوثنيين مخطئين في قبولهم الشركَ بالله وتعدد الآلهة، ودورات العالم الخالدة، وتناسخ الأرواح. ولقد كان الاعتقاد القديم بالتناسخ قدريًّا بالكامل بقدر مبالغ فيه، لدرجة أنه لم يتوافق مع مفهوم الرب باعتباره القوة الإبداعية المتفردة العاملة بشكل تخليصيٍّ كي تجلب خلقها العقلاني إلى غايته الحقيقية الممثلة في رفقة الرب.

كانت هناك نقاط خلافية أخرى أقل جلاءً ولكنها ليست أقل حيثية. ورغم أهمية نبذ الممارسات الجنسية في سياق هدايته، لم يتفق أوغسطينوس مع أفلوطين في رؤيته للمادة والمادية باعتبارهما الأصل الرئيس للشر. ومرة أخرى، على النقيض من أفلوطين (على

خُطَى أفلاطون في «الجمهورية» ٥٠٩ قبل الميلاد)، لم يَقُل أوغسطينوس بأن الرب ينبغي أن يوصف بالواحد «المتجاوز للوجود»، واستطاع أن يقبل الأطروحة الأفلاطونية النقيضة عن الواحد والعديد كَرِواية للعلاقة ما بين الخالق السامي والتنوع المتشعب للخلق، لكن الإله الواحد لا يتجاوز الوجود قط، وطمأنَتْه الآية ٣: ١٤ من سفر الخروج بأن الربَّ نفسه وجود، وأنه الوجود نفسه: فهو كل ما هو موجود فعلًا. (أُلقيت عظتان مؤثرتان جياشتان في هيبو على جَمعٍ من عُمال الموانئ والمزارعين وطورتا هذه الفكرة المميزة: (شروحات المزامير Enarrationes in Psalmos ومعاهدة إنجيل يوحنا Tractatus in Evangelium Johannis).)

إن الخلق «مشاركة» في الوجود. ويوحي هذا اللفظ بالاشتقاق. وهو مميِّز لما يُشتق، وما يملكه المرء حينئذٍ يكون متمايزًا عن كينونته. بالنسبة إلى المخلوقات، الوجودُ شيء والتحلي بالإنصاف والحكمة شيءٌ آخر. ولكن الوجود بالنسبة إلى الرب يعني الإنصاف والخيرية والحكمة في الوقت نفسه؛ فالإنسان يمكن أن يكون موجودًا دون أن يتحلى بالإنصاف أو الخيرية أو الحكمة، أما الرب فلا؛ فالرب «هو من يملك». عبَّرَ أفلوطين عن النقطة نفسها بلغة أرسطية قائلًا: في «المادة» الإلهية (أي الجوهر الميتافيزيقي) لا يجوز أن تكون هناك أي عوارض. واتفق أفلوطين وأوغسطينوس على أن الفئة الأولى وحسب من الفئات العشر، ألا وهي المادة، هي التي تنطبق على وجود الرب (الاعترافات).

وجد أوغسطينوس مقدمة إنجيل يوحنا (وهي جزء من العهد الجديد أبهر الفلاسفة الأفلاطونيين الحداثيين) تصريحًا نبيلًا للصورة العالمية الأفلاطونية، ولنور الرب الذي يشع في الظلام ليعيد العالم المستوحش إلى العوالم العليا. ولكن، إذ وجد المسيحية تُعبِّر عن الحقيقة بشكل أفلاطوني جدًّا، لاحظ أوغسطينوس نقطةً خلافية شديدة؛ إذ لم تقل «كتب الأفلاطونيين» إن الكلمة صارت جسدًا. لقد كان مبدأ الوحي الفريد في سياق حياة محددة فكرةً مسيحيةً اضطر ماني إلى تبديلها تبديلًا جذريًّا. بالنسبة إلى أفلاطونيٍّ وثنيٍّ، بدت خصوصية تلك الفكرة غير متوافقة بشكل فاضح مع الثبات الإلهي والسريان الشمولي للعناية الإلهية في الكون ككل. لم يفكر الأفلاطونيون في وجود غاية إلهية تعمل عملها في فوضى التاريخ وخلالها، ومفاهيمهم الخاصة بالزمن كانت دورية لا خطيَّة؛ بتعبير آخر، في فترات زمنية فاصلة كبيرة يرجع تكوين النجوم إلى الموضع نفسه، وحينئذٍ تبدأ الأشياء كلها مجددًا في المسير في نفس الحلقة المفرغة. إن مفهوم التجسيد الفريد الذي يدعو الإنسان لاتخاذ قرار وجودي تترتب عليه تبعات أبدية يعني أن الأفلاطونية لم

تكن شيئًا يستطيع أوغسطينوس أن يتركه دون تعديل. ومن ناحية أخرى، فقد شعر هو أيضًا أنه من الضروري تفسير التجسيد بلغة العناية الإلهية الشمولية كخطوة محورية باتجاه غاية التاريخ ومفتاح لفهم معناه.

خلال الفترة التي اهتدى فيها للمسيحية، كان أوغسطينوس في نحو الثالثة والثلاثين من عمره، وكان قد أمسى أستاذًا مرموقًا في الأدب والأسلوب البلاغي. ولو كان قد سعى وراء الوظيفة العلمانية التي حلم بها، لَمَا عَرَفتِ الأجيال اللاحقة عنه الكثيرَ بخلاف اسمه، ربما فقط باعتباره مثالًا مذهلًا للتحول الاجتماعي الذي قام به شاب بارع مثله متحدِّر من عائلة إقليمية مُعدمة من ريف مملكة نوميديا الأمازيغية، والذي كد في عمله وحالفه الحظ إذ استمتع بشيء من الرعاية المفيدة لمستقبله. الآن تخلى أوغسطينوس عن كل هذا، وكان عليه أن يجد الإجابات الشافية عن الأسئلة الملحة. وكانت مهمته الأدبية الأولى البحث في أسئلة شائكة عن الشر والقدَر التي فرضها عليه في فترة من الفترات المانويون. وكان عليه أيضًا أن يرد على المفكرين المشككين الذين كانوا، خلال فترة حرجة، منسجمين مع ذهنه بشدة.

خلال الأشهُر التي أمضاها في كاسيكاسيوم، أَلَّفَ أوغسطينوس سلسلةً من المحاورات الفلسفية، التي غالبًا ما اتخذت قالب محاورات شيشرون التي كتبها في معتزله في توسكولوم. ولقد مكَّنه التقليد الأدبي لشكل المحاورة من التصريح بصعوبات كان لم يزل هو نفسه يُكابدها، وأصبح باستطاعته أن يناقشها مع نخبة متعمقة التفكير. كانت أجواء المحاورات أشبه بأجواء قاعة المحاضرات؛ حيث استخدم أوغسطينوس المناقشة الجدلية كوسيلة للتلقين، عارضًا المشكلات وملتمسًا الحلول. وكانت الموضوعات التي تناولها، في بداية المطاف، طبيعة السعادة (الحياة السعيدة)، ونقدًا لنظرية المعرفة المتشككة ومذهب تعليق الحكم (ردًّا على الأكاديميين)، والتأكيد على أن القدَر الشخصي أو الخاص ممكن في سياق النظام المتسق للكون، وسلسلة العلة والمعلول (حول الحكم De ordine). وفي المحاورة الأخيرة من تلك المحاورات، أدرج أوغسطينوس دفاعًا عن دراسة الفنون الحرة كإعداد للعقل لتلقي الحقائق الأكثر سموًّا، واقترح أنها ينبغي أن تُرَتَّب على سلَّم تصاعدي، على أن تأتي الهندسة والموسيقى تحديدًا لتكشف عن النظام الحسابي الكامن وراء الكون. واستعار أوغسطينوس صورة من أفلوطين، واستخدم صورة الرصيف المصنوع من الفسيفساء الذي لا ترى جماله العين المنكبَّة على قطعة صغيرة واحدة، بل العين التي تحاول فحسب أن تنظر للصورة ككل. وفي فقرة تتوافق

بشدة مع الأفلاطونية الجديدة، أعلن أوغسطينوس بأنه «كي نرى الواحد، يجب أن ننسحب من التعددية؛ ولا أعني وحسب تعددية البشر، بل وتعددية الإدراكات الحسية. ونلتمسه وكأنه مركز دائرة تمسك ما حولها بقوة وتحافظ على تجانسه» (حول الحكم).

وفي كاسيكاسيوم، كتب أيضًا «مناجاة النفس» (استحدث أوغسطينوس هذه التسمية)، وهي عبارة عن محاورة سَلَّمَ أوغسطينوس — بحثًا عن اليقين خاصة فيما يتعلق بخلود الروح — نفسَه فيها إلى إملاءات العقل. ولقد أدَّت تحفة أدبية ذات طابع أفلاطوني حديث تحديدًا من الجدل به إلى تأكيد أن الحقيقة الحسابية صحيحة بشكل سرمديٍّ، وأن العقلَ الذي يعرف هذه الحقيقة أيضًا يشارك في هذا السمو للتسلسل الزمكانيِّ، وهو الرأي المُشار إليه على استحياء في أعمال أفلاطون (مينو)، وطوره إلى حدٍّ كبير أفلوطين. وفي مزيج خصب من العبارات المستعارة من شيشرون، تمزج «مناجاة النفس» ما بين لغة الإنجيل وخليط قوي من الوجودية الأفلاطونية الحديثة. ثمة إشارة مؤكدة بالاسم لكلٍّ من أفلاطون وأفلوطين، ووجود الأفكار المستخلصة من فرفوريوس محتمل جدًّا. يقول أوغسطينوس هنا إنه ما من سبيل وحيد لينال المرء رؤيةَ الرب؛ ولكن على الأقل يتعين على المرء أن يفرَّ من كل شيء مادي، ويُنحي بحثه عن الإشباع؛ سواء إشباع الحب الجنسي «حتى الذي يكنُّه المرء لزوجة متعلمة ومتواضعة»، أو إشباع المال أو السمعة والشهرة، كما يتعين عليه تدريب ذهنه على الوقائع غير المرئية بواسطة عملية شبيهة بالتجريد الهندسي؛ بحيث لا يفكر المرء في المربعات ذات الأحجام المختلفة، بل في المبادئ التي بموجبها تمتاز المربعات بشكلها المربع. وبعدئذٍ، يجوز أن يبدأ المرء في فهم السمو الغامض للرب الذي تجد فيه الروح الخالدة المطهرة غايتها الحقيقية. والطريق إلى التطهير الداخلي يكون بالإيمان. إن الاقتراح الأخير هو الوحيد الذي ربما كان سيثير حيرة فرفوريوس.

تمزج محاورات كاسيكاسيوم ما بين الثقة بأن ثمة نظامًا قدريًّا وانعدامًا للثقة بالنفس حيال قدرة الإنسان على فهم ذاك النظام في كل الحالات. ويُنظر إلى الثقة بالقَدَر بأكثر من كونها لغزًا فكريًّا: «ستُمنح الرؤية لكلِّ مَن يعيش عيشة كريمة ويُحسن الدعاء ويكد في دراسته» (حول الحكم). ولكن، من المقترح أنه في خضم كل هذه التنوعات وتوترات التجربة، يمكن أن يكون هناك انسجام مطلق، وجمال يكمن في النقائض والتباينات كما في صورة مرسومة تحوي من الألوان الفاتح والداكن؛ وعليه، فمن المحتمل أيضًا أن تكمن وحدة الحقيقة فيما وراء الموضوعات المتعددة للمعرفة البشرية بمناهجها المختلفة للبحث والاستقصاء.

في ظل تخصيص هذه المكانة العظيمة لدراسة الفنون الحرة، كان من الطبيعي لأوغسطينوس، في الأيام الأولى التالية لتعميده، أن يشرع في وضع سلسلة من الكتيبات المتعلقة بالموضوعات الأساسية للمنهج التعليمي القديم. من بين هذه الكتيبات، لم تصمد دون مساس إلا كتبه عن المنطق والموسيقى. وعُثر على كتابه عن قواعد اللغة، وعُرِضَت نسخة منه على عائلة كاسيودوروس في القرن السادس الميلادي، واعتُبِرَ ذا فائدة عظيمة لدرجة أن نسخته التي في مكتبته سُرقت. وتَنقل لنا مخطوطاتُ العصور الوسطى كتابين في قواعد اللغة باسم أوغسطينوس، ومن المحتمل جدًّا أن أحدهما (ويُعرف باسم Ars breviata) هو النص «المفقود». والنتيجة واضحة؛ وهي أن الهداية إلى المسيحية والتعميد لم يتمكنا من سحق النزعة التربوية والإنسانية لدى أوغسطينوس. وألقت به التأثيرات الأفلاطونية الحديثة على الطريق إلى النظر إلى الفنون الحرة (ولا سيما الجدلية والهندسة والموسيقى) كتدريب ذهني مُحبذ بشدة في الفكر التجريدي المؤهل للاستكشافات الميتافيزيقية الأسمى.

في نهاية حياته، كتب أوغسطينوس نقدًا أملاه عليه ضميره لعمله الخاص طوال حياته، وأسماه «المراجعات» أو «إعادات نظر» (استدراكات، ولا يجوز ترجمتها «تراجعات»؛ وذلك لأن الكتاب يكاد يكون في أغلبه دفاعًا عن أفكاره بقدرِ ما هو تراجع عن أفعاله الطائشة). في هذا الكتاب، شعر أوغسطينوس أنه مال في شبابه إلى المغالاة في قيمة مثل هذه الدراسات الحرة وأهميتها: «كثير من رجال الدين لم يدرسوا هذه الفنون قط، وكثير ممن درسوها ليسوا برجال دين» (المراجعات Retractationes).

تجلَّى الاهتمام التعليمي لدى أوغسطينوس تجليًا مختلفًا في فترة نضجه، ولا سيما في واحد من كتبه الأكثر أثرًا، وأول الكتب التي طبعت في القرن الخامس عشر. كان هذا الكتاب بعنوان «حول الثقافة المسيحية»، وراجع أوغسطينوس الكتاب وأضاف إليه قرب نهاية حياته. ولقد حُفِظَت مخطوطة النسخة الأولى التي كتبها أوغسطينوس في حياته، وهي موجودة الآن في مدينة سانت بطرسبرج. ويتناول هذا العمل التمحيص في المهارات الضرورية لتفسير الإنجيل تفسيرًا صحيحًا وبشكل مُقْنِع. واستغل أوغسطينوس «كتاب القوانين» لعالم اللاهوت المنشق تكنيوس ليصوغ شرائع التأويل التي ستتفادى الذاتية، مثلًا في تحديدِ ما هو حَرْفِيٌّ وما هو مجازي، وفي حالة المجازي، تحديد المعنى المستتر. لقد أفصح الإنجيل حقًّا عن حكمة الرب؛ لكن العلوم البشرية كانت غير ذات صلة تمامًا باكتشاف تلك الحكمة وبيانها؛ فمفسرو الإنجيل الواثقون بوحيهم الداخلي الخاص

ارتكبوا أخطاءً كثيرةً وفادحةً. ويسجل أوغسطينوس بشيء من الدهشة أن ثمة مسيحيِّين معاصِرين في أفريقيا لم يقرءوا شيئًا بخلاف الإنجيل، ولا يتحاورون غالبًا إلَّا بترجمات غريبة للإنجيل اللاتيني القديم، وذلك استباقًا لإنجليزية جمعية الأصدقاء الدينية. كان على يقين من ضرورة إجراء دراسات أكثر توسعًا؛ فالعالِم بالإنجيل بحاجة إلى معرفة شيء من التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضيات والمنطق والبلاغة (كيفية الكتابة والتحدث بوضوح وبشكل ملائم). وقد تكون هناك أماكن تساعد فيها معرفة طفيفة بالتكنولوجيا المُفَسِّر. ولا شك أن معرفةً بسيطة باللغة اليونانية كانت ذات قيمة قصوى في التحقق من الترجمات والقراءات المختلفة.

لم يدرس أوغسطينوس العبرية قط، رغم أنه كان يفهم الكلمات القرطاجية التي يتحدثها الفلاحون، وكان يعرف تمام المعرفة أنها لغة سامية من أصل واحد هي والعبرية. ووفر عليه وجوبَ تعلم العبرية نوعًا ما إتقانُ معاصره الأرفع مكانة وصديقه بالمراسلة جيروم لها، وكذلك لأنه كان على يقين من أن الترجمة اليونانية للعهد القديم التي أنجزها سبعون حبرًا (السبعونية) لم تكن أقل إلهامًا من النسخة العبرية نفسها. ولقد أزعجه الإنجيل اللاتيني الجديد لجيروم (النسخة اللاتينية للإنجيل) كلما وجد كلمات مألوفة منذ زمن طويل مُبدلة بلا داعٍ. فهذا أمر يستاء له العلماني الذي دائمًا ما يكون عدائيًّا تجاه التغييرات الطقسية.

لقد عكس العمل المتعلق بالثقافة المسيحية التوقير الخاصَّ الذي كان أوغسطينوس يكنُّه للإنجيل. فقد أَنكر صراحةً أن الكتاب المقدس يمثل الوسيط الوحيد للوحي الإلهي (العظات)؛ لكنه مَثَّلَ مبدأ السلطة الذي بدا مركزيًّا للإيمان المسيحي بطريقة إلهية معينة للخلاص للبشرية الجاهلة الضالة. لقد اعتمدت سلطة الإنجيل والكنيسة على الدعم المتبادل، واستخدامُه في الكنائس حدَّد قيود الشريعة. ولقد رسَّخَت نصوص الإنجيل الطبيعة المقدسة التكوين للكنيسة.

لقد جعل الجدل الموجَّه ضد نقاد المانوية أوغسطينوس يصرُّ على وجود مغزًى روحاني داخلي، ولا سيما للعهد القديم. «يكمن المغزى من العهد الجديد مستترًا في العهد القديم، ويتكشَّف مغزى العهد القديم من خلال العهد الجديد» (تلقين غير المتعلمين De catechizandis rudibus). وعلى ذلك، فقد أشبع مجيء المسيح طموحات رسل العهد القديم. لقد جعله المانويون واعيًا جدًّا بالخط الفاصل ما بين الكتب المعترف بها باعتبارها مطابقةً للشرع الكنسيِّ من قِبَل الكنيسة والأناجيل والأعمال المزيفة التي غالبًا

ما كان يلتمسها ماني؛ خاصة لأن هذه الأعمال المزيفة وُضِعَت لدعم وجهة النظر القائلة بأن الزواج لا محل له من الإعراب للمؤمن. إن حجة المانوي، التي مفادها أن نص العهد الجديد تعرَّض للتحريف أثناء انتقاله، جعلته على دراية بأهمية القراءات المختلفة بين المخطوطات، أو بالأخطاء الواردة في الإنجيل اللاتيني القديم. فهو لم يستوعب أن النص الإنجيلي يحمل في طياته معنًى واحدًا فقط قصدَه آنذاك المؤلِّف الأصلي. فقد استخدم كُتَّابُ الأناجيل أنفسُهم كثيرًا الرمزَ والمجاز. والإصرار على معنًى حرفيٍّ وتاريخيٍّ لا محالة يعني الإخفاقَ في فَهْم الرسالة الكامنة.

في مواطن قليلة، استطاع أوغسطينوس أن يكتب بثقة عن وضوح الإنجيل وجلائه. ولكن، هناك مَوَاطِن أخرى اضطر فيها إلى الاعتراف بأن نصوص الإنجيل غامضة، وأنه ليس كل شيء ضروري للخلاص واضحًا لأيِّ قارئ عادي. وتعزِّز ذلك ملاحظةُ أن الكثير من المهرطقين ينطلقون من تفسير خاطئ للإنجيل أو متحيز ضده. ولأنهم بارعون ومغرورون، تراهم يترددون في تصحيح أنفسهم؛ «فجزء من الطبيعة الكاثوليكية أن يُعرب المرء عن رغبته في قبول التصحيح إذا وقع في الخطأ» (ردًّا على رسالتيْن للبيلاجيين Contra duas epistulas Pelagianorum).